# واقعية الفكر العقدي عند البشير الإبراهيمي
# ودورها في مواجهة تحديات عصره

الدكتور صالح نعمان

**المقدمة:**

لقد واجهت العقيدة الإسلامية في الجزائر من التحديات الفكرية والمادية ما لم تواجهه ربما في أي منطقة أخرى، وذلك سواء من حيث حدة المواجهات وشمولها، أو من حيث تنوع وتعدد الأطراف والجهات المتحدية وهي الإحتلال واذنابه والإستيطان الأروبي، أو من حيث تنوع التحديات وتعددها، كالتدمير والتخريب المادي العسكري والتنصير الأروبي والتحريف العقدي الطرقي، ومحاولة القضاء على اللغة العربية.

ولقد استفحلت هذه التحديات واحكمت امورها حتى اصبح المجتمع خاضعا للواقع مستسلما له، فصدقت عليه مقولة مالك بن نبي (القابلية للإستعمار).

وبناء عليه رأى الشيخ الإبراهيمي ضرورة تغيير هذا الواقع واصلاحه على قاعدة قوله تعالى: " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم"(الرعد/11)، ولا يكون ذلك إلا بتحقيق وحدة الأمة وتوحيدها لا يتأتى إلا بتوحيدها العقدي عقيدة

التوحيد، قال محمد البشير الإبراهيمي يوم الجمعة 22 ربيع الأول 1355هـ بجريدة البصائر السنة الأولى العدد(23)، في المؤتمر الإسلامي الجزائري؛ قال: (لم يمض على الجزائر الإسلامية في تاريخ ارتباطها السياسي بفرنسا يوم أغر محجل تمثلت فيه الأمة روحا وجسما، وتلاشت فيه الفوراق الاعتبارية كهذا اليوم . ففيه التقى . عن الفكرة والعقيدة . الجزائري بأخويه القسنطيني والوهراني وفيه اجتمع . على تلك الفكرة . المصلحون والطرقيون وعلماء الدين والسياسة، والشيوخ والشبان والتجار والفلاحون والعمال، جمعت الكل صفتا الإسلام والجزائرية، وحدتهم قسوة الأيام، وألفت بينهم المحن والهموم، فاندفعت ألسنتهم تعبر عن رغائب الدين بلغة الدين وعن رغائب الدنيا بلغة السياسة. والنقطة التي يلتقي فيها عندها الكل هي الإسلام والجزائرية، لذلك كان ضروريا أن يكون مدار البحث على الإسلام ولسانه والمسلم وحقوقه في الحياة.) وهذا يدل على مدى واقعية الشيخ في معالجة المور المستمدة من واقعية الدين الإسلامي.

**أ–واقعية العقيدة الإسلامية**

إن الغاية الدفاعية لعلم العقدية تقتضي تتبع واستقراء الآراء والأعمال المنحرفة التي يفرزها الواقع لتقويمها وتصحيحها بنصرة العقيدة وإثباتها، وذلك بوسيلتين:

أحدهما بيان صحتها لتحصينها من الشكوك والطعون ويتمثل ذلك في بإثبات العقائد ونصرتها.

وثانيهما دفع شبه الخصوم عن العقيدة الإسلامية بالنقض وتزييف آرائهم ومعتقداتهم وما تبثه من سموم فكرية اعتقادية وشبهات في المجتمع الإسلامي.

فهذا التوجه النقدي التتبعي، الذي جعل علم العقيدة يترصد كل فكر وسلوك منحرف عن حقيقة الدين الإسلامي لعلاجه أو صده أو تحصين كل إيمان وسلوك قويم، طبع علم العقيدة بطابع الواقعية، فكان علما واقعيا بغايته الدفاعية هذه.

و هذا يدل على شدة الترابط بين العقيدة والعمل المتمثل في الالتزام بالشرع التزاما كاملا تصورا وسلوكا لدى الإنسان المؤمن ولا يتسنى ذلك إلاَّ إذا كان علم العقيدة متصلا بجميع العلوم اتصالا واقعيا مستمدا من واقعيته وواقعية العلوم الأخرى؛ وهذا يدل على الخاصية التي يتميز بها الفكر الإسلامي التي طبعت علم العقيدة بالواقعية.

وهذا ما جعل جمعية العلماء المسلمين تجعل اصلاحها للمجتمع الجزائري يقوم على تعليم العلوم الشرعية والإنسانية الإجتماعية مطعّمة بالعلوم الكونية حتى تحرر المواطن من الجهل والتخلف فينتفض ليتحرر من الإحتلال، ومناط التحرر وأسه عقيدة التوحيد.

وابن خلدون يبين الأهمية العملية للعلوم الشرعية ودورها في ايقاض الفكر وتحرير السلوك وتقويمه: «وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه، وعلى أبناء جنسه وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالإجماع أو بالإلحاق فلا بد من النظر بالكتاب ببيان ألفاظه أولا وهذا هو علم التفسير، ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبيﷺ الذي جاء به من عند الله واختلاف روايات القراء في قراءته وهذا علم القراءات، ثم بإسناد السنة إلى أصحابها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هي علوم الحديث، ثم لا بد من استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهذا هو أصول

الفقه، وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين وهذا هو الفقه، ثم إن التكاليف منها بدني ومنها قلبي وهو المختص بالإيمان وما يجب أن يعتقد مما لا يعتقد وهذه هي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمور الحشر والنعيم والعذاب والقدر، والحجاج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام، ثم النظر في القرآن والحديث لا بد أن تتقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها وهي أصناف، فمنهم علم اللغة، وعلم النحو، وعلم البيان، وعلم الأدب حسبما نتكلم عليها كلها»[1].

ويقول طاش كبرى زادة في نفس السياق: «اعلم أن العلوم الاعتقادية: إما متعلقة بالنقل، وفهم المنقول، أو تقريره وتشييده بالأدلة، أو استخراج الأحكام المستنبطة، فالنقل، إن كان بما أتى به الرسول بواسطة الوحي فهو علم القراءات، أو ما صدر عن نفسه المؤيدة بالعصمة فعلم رواية الحديث، وفهم المنقول: إن كان من كلام الله تعالى فعلم تفسير القرآن، وإن كان من كلام الرسول فعلم رواية الحديث، والتقرير: إما الآراء فعلم أصول الدين، أو الأفعال فعلم أصول الفقه، واستخراج الأحكام من أدلتها فعلم الفقه»[2].

فابن خلدون جعل محور العلوم الإسلامية الإنسان المكلف الذي يتحتم عليه معرفة أحكام الله تعالى المفروضة عليه حتى يستقيم تصوره ويعتدل سلوكه وذلك لأن التوحيد كما يقول: «ليس هو الإيمان الذي هو تصديق حكمي فإن ذلك من حديث النفس، وإنما الكمال فيه حصول صلة منه تتكيف بها النفس، كما أن المطلوب من

1. ابن خلدون: المرجع السابق، 435 – 436.

2. طاش كبرى زادة: المرجع السابق، ص 05.

الأعمال والعبادات أيضا حصول ملكة الطاعة والانقياد وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود حتى ينقلب المريد السالك ربانيا، والفرق بين الحال والعلم في العقائد فرق بين القول والاتصاف»[1]، فكان المطلوب إذن «في التكاليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس يحصل عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الإيمانية وهو الذي تحصل به السعادة وأن ذلك سواء في التكاليف القلبية والبدنية»[2] ولهذا أسمى طاش كبرى زادة العلوم الإسلامية علوما اعتقادية فهي تقوم كلها على أساس أصول الدين، فبثبوت العقيدة في النفوس وحصانتها من شبه الخصوم يصلح العمل أو كما قال ابن خلدون يتحقق الاتصاف، فنفهم من ذلك أن «الإيمان الذي هو أصل التكاليف وينبوعها هو بهذه المثابة ذو مراتب أولها التصديق القلبي الموافق للسان (حصول التصور) وأعلاها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي ما يتبعه من العمل (أي مطابقة السلوك للتصور) مستولية على القلب فيستتبع الجوارح وتندرج في طاعتها جميع التصرفات حتى تنخرط الأفعال كلها في طاعة ذلك التصديق الإيماني وهذا أرفع مراتب الإيمان وهو الكامل الذي لا يفارق المؤمن معه صغيرة ولا كبيرة، إذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه طرفة عين قال ﷺ (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)[3]»[4]..

ومعنى ذلك أيضا أن لعلم العقيدة بعدا اجتماعيا واقعيا، وهو ما حرص على إظهاره أبو الوليد ابن رشد (ت 595هـ/1198م) في مقدمة كتابه مناهج الأدلة[5].

---

1. ابن خلدون: المرجع السابق، ص 460.
2. نفس المرجع، ص 461.
3. رواه مسلم في كتاب الإيمان.
4. ابن خلدون: المرجع السابق، ص 461 – 462.
5. أبو الوليد ابن رشد: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ص 99 – 100.

ولو أمعنا النظر في كلام ابن خلدون لوجدناه تفصيلا لما جمعه الفارابي حين ضم علم النفس عنده إلى علم العقيدة وعلم الفقه، فالتصديق (أو الإيمان أو الآراء) هو من حديث النفس،والسلوك (العمل، أو الأفعال) هو صفة تتكيف بها النفس، ومن ثم يعدَّان صورتا العملية النفسية في حياة الإنسان.[1]

وبالتالي يتغيا علم النفس عند الفارابي وابن خلدون والتهانوي وطاش كبرى زادة عبر علم العقيدة وعلم الفقه وسائل العلوم النقلية والعقلية تقويم الإنسان وحفظه من الانحراف تصورا وسلوكا لتحقيق مصالحه المطابقة لمقاصد الشرع، ولا يتم ذلك إلاَّ بتحقيق الانسجام الوجودي والمعرفي بين الإنسان والكون كما عبر عنه القرآن الكريم وبيَّنته مثلا سورة الشمس وعبر عنه العلماء المسلمون التأصيليون في تصنيفهم للعلوم[2].

قال الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا، وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا، وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا، كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا، إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا، فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا، وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[3].

1 – صالح نعمان: منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر، رسالة دكتوراة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2004. ص27-29

2 . راجع في تصنيف العلوم والتواصل بينها: عبد المجيد النجار، المرجع السابق، ص 33 – 678.

3 . سورة الشمس: 1 . 15.

فقد عرضت السورة الانسجام الكوني ثم ما يجب أن تكون عليه النفس الإنسانية من الانسجام اقتداء بالكون ثم عرضت لعاقبة عدم تحقيق الإنسان للتوافق بينه وبين الكون الذي هو مضمون دعوة الرسل وغاية بعثتهم والمتمثل في تحقيق التوحيد والذي عبر عنه ابن رشد بموافقة الموجودات لوجود الإنسان1، وهذا مصداقا لقوله تعالى " **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم**"(الرعد/11).

ولا يتسنى ذلك إلاَّ بتحصيل العلم والتحقيق بصفته أي تحقيق عقيدة التوحيد إيمانا وعملا، أو تصورا وسلوكا، ومن ثم التمكين للإنسان المؤمن في هذه الدنيا والفوز برضى الله تعالى في الدنيا والآخرة، وهو ما عبر عنه الفارابي وابن خلدون بـ «تحصيل السعادة»، وأكده الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[2]. فبالإيمان وعمل الصالحات تتحقق العبودية لله تعالى وحده، وهي منهج تحقيق الغاية من وجود الإنسان، الاستخلاف، كما بينته الآية السابقة، وكما بينه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3].

لقد تمثل دور علم العقيدة في مهمتين أساسيتين: أولهما الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وثانيهما ترقية الإيمان من التقليد وتحليته باليقين، وهو ما بيَّنه التهانوي في قوله: «وفائدته الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان، وإرشاد المسترشدين

1 . ابن رشد: المرجع السابق، ص 118.

2 . سورة النور: 55.

3 . سورة الذاريات: 50.

بإيضاح الحجة لهم، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم، وحفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبه المبطلين وأن تبتنى عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها... وغاية هذه الأمور كلها الفوز بسعادة الدارين»[1].

وهو ما جمعه الشيخ الطاهر بن عاشور في كلمتين: «التفصيل والتعليل»، إذ قال: «قد أحاط الإسلام إصلاح العقيدة ودوام إصلاحها بأمرين عظيمين هما: التفصيل والتعليل؛ فأما التفصيل: فهو في أمور ثلاث:

أولها بتمام الإيضاح لسائر المسلمين، وبإعلان فضائح الضالين في العقيدة على اختلاف ضلالهم، والإغلاظ عليهم، وبسد ذرائع الشرك واجتناب عروقهم...

وأما التعليل فذلك باستدعاء العقول إلى الاستدلال على وجود الله، وعلى صفاته التي دل عليها تنزيهه، وأعظم ذلك الاستدعاء إلى النظر في النفس وهو أصل الحكمة، فالقرآن يكرر الدعوة للنظر... وكذلك الآثار الصحيحة، وبذلك قال علماؤنا أن أول الواجبات على المكلف معرفة الله تعالى... وترتب على ذلك اختلاف علماء الكلام في صحة إيمان المقلد...»[2].

وهذا يعني أن المهمتين الدفاع والترقية متكاملتان متداخلتان لا تنفكان عن بعضهما البعض، وتتحققان بمجموعة من الوسائل تعد وظائف لعلم العقيدة من أهمها أربع: الشرح والبيان لغرض الفهم والإصلاح، وإثبات العقائد للترقية والإيقان، ورد الشبهات للصيانة، والهجوم للحصانة.

### ب- منهج الإصلاح عند البشير الإبراهيمي

1. التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، ص 30.

2. محمد الطاهر بن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص 49 – 50.

نستطيع أن نلخص الركائز التي قامت عليها دعوة الشيخ الإبراهيمي في النقاط التالية:

**أولاً: إصلاح عقيدة الجزائريّين،** فقد كانت جمعيّة العلماء تركز عملها بصفة عامّة على مقاومة الخرافات والبدع التي شوَّهت عقيدة المسلمين، وتطهير عقيدتهم من مظاهر الشرك، سواء العلني منها أو الخفي.

كان –رحمه الله– يرى أن العقائد السليمة هي قاعدة الإصلاح في المجتمع، وهو ينادي بأن حالة التدهور العام التي وصل إليها المسلمون في القرون الأخيرة إنّما تعود إلى تدهور العقيدة لدى الفرد المسلم تطرُّق الشرك الخفي إليها.

**ثانياً: مقاومة الصوفيّة المبتدعة.**

وقد كان رحمه الله تعالى في محاربتهِ للصُّوفيَّة وخرافاتها وتُرّهاتهم متأثِّراً بتعاليم حركة الشيخ محمد بن عبدالوهَّاب الإصلاحيَّة ،ويتَّضحُ ذلك عندما نراه يُعَلّل هجوم المتاجرين بالدِّين على هذه الدَّعوةِ السُّنِّيَّة الإصلاحيَّة في البلاد الحجازيَّة التي سَمَّاها خصومُها بِ(الوهَّابيَّة) –تنفيراً وتَشويهاً– لأنَّها قضت على بدعهم، وحاربت خرافاتهم، فيقول:

"إنَّهم موتورون لهذه الوهَّابيَّة التي هدمت أنصابهم، ومحت بدعهم فيما وقعَ تحتَ سلطانهم من أرضِ الله، وقَد ضجَّ مبتدعة الحجاز فضجَّ هؤلاء لضجيجهم والبدعة رحم ماسة، فليس ما نسمعهُ هنا من ترديد كلمة (وهابي) تُقذف في وجه كل داعٍ إلى الحقِّ إلاّ نواحاً مردَّداً على البدع التي ذهبت صرعى هذه الوهَّابيَّة.

**ثالثاً: محاربة الفهم الخاطئ للإسلام:**

يرى الشيخ الإبراهيمي أن المتاجرين باسم الدين كان لهم أسوأ الأثر على عقول النّاس، حيث خدّروها بالأوهام، وملأوها بالخرافات والإدّعاءات التي ليست من الدين الحنيف في شيء، فكان فعلهم مشوّشاً للإيمان عند العامّة مانعاً للتّفاعل الرّوحي المتعقّل من تعاليم الإسلام.

ومكمن خطر هؤلاء أنّ رأس مالهم التدجيل والتحريف، وبضاعتهم في هذه الأمّة المسكينة التي أحكموا الحيلة في تخديرها بالرؤى والمنامات، وزعزعوا عقيدتها بالله بما أثبتوه لأنفسهم من التّصرف في الكون أحياءً وأمواتاً، ومن مشارك الخالق فيما تفرُّد به من الأمر والخلق، وأفسدوا فطرتها الدينيّة بما ابتدعوه لها من عبادات (ميكانيكيّة) هي إمّا زيادة في الدين أو نقص فيه.

وظهرت آثار هذه المحاربة في التّركيز أولاً على إصلاح عقيدة النّاس، وعلى محاربة الصوفيّة المبتدعة التي كانت منتشرة آنذاك.

ويرى الشيخ الإبراهيمي أيضاً أنّ ابتعاد النّاس عن المفهوم الحقيقي للإسلام يجلب لهم لا محالة التّفرق والتشرذم، ومن مستلزمات ذلك الاعتماد على أسس ما أنزل الله بها من سلطان، فتجد هؤلاء المبتدعين يعتمدون تارة على علم الكلام، ويقدّسون (العقل)، وتجد بعهم الآخر ينخلع تماماً عن ذلك، ويغرق في الكلام عن الرّوح، فها هو يصرح بأن الجدل وعلم الكلام: «هو مبدأ التفرق الحقيقي في الدّين، لأن المتكلمين يزعمون أن علومهم هي أساس الإسلام، والصوفيّة يقولون: أن علومهم هي لباب الشريعة وحقيقتها فهو -رحمه الله تعالى -عالج جميع الأسباب التي يجتمع عليها فئات من النّاس، ويتّخذونها أساساً فيما بينهم على الالتقاء على شارة ما، أو اسم معين، أو مذهب فقهيّ، أو عقليّ، أو روحيّ، ولذا ترى عنده من السّماحة،

وبُعد الأفق؛ وسعة الصّدر، ما هو حقيقٌ بمثله، بحيث كان مصلحاً حقّاً، بعيداً عن التّعصُّبات المقيتة، نابذاً القوالب الحزبيّة الضيّقة، فهو لا يعمل لاسمٍ أو رسمٍ، وإنّما للإسلام ذات الإسلام بفهم سلف الأمّة الصالحين.

وكان -رحمه الله تعالى- إيجابيّاً في دعوته، انطلق من أسس راسخة في الإصلاح، وأوجز مهام هذا بقوله: «إيصال النّفع والخير إلى الأمّة، ورفع الأميّة والجهل عنها، وحثّها على العمل وتنفيرها من البطالة والكسل، وتصحيح فهمها للحياة وتنظيف أفكارها وعقولها من التّخريف، وتنظيم التّعاون بين أفرادها وتمتين الصّلة والثّقة بين العامة والخاصّة منها، وتعليمهم معاني الخير والرّحمة والإحسان لجميع الخلق.[1]

**أ- إصلاح العقيدة ( أس المنهج الإصلاحي وغايته)**

يقول الشيخ مبيّنا أهمية اصلاح العقيدة في القانون الأساسي للجمعية: (( نبدأ بإصلاح العقيدة مثلا. والعقيدة الحقة لها ميزان دقيق وهو الكتاب والسنة، فإذا عرضنا أكثر عقائد الناس على ذلك الميزان وجدناها طائشة، فأي سبيل نسلكه لتقويمها، إن اقتصرنا على بيان العقيدة الصحيحة واجتهدنا في إقامة الأدلة، فإن التأثير يكون قليلا لأن النفوس قد اصطبغت بعوائد وتقاليد مستحكمة، والفطر قد فسدت بما لابسها من خرافات وأوهام.

1 - الشيخ مشهور حسن آل سلمان: "الشيخ محمَّد البشير الإبراهيمي" بمجلة الأصالة العدد (1)

فالواجب إذن أن نبدأ بمحاربة تلك البدع والخرافات بطرق حكيمة تقرب من أذواق الناس، فإذا ماتت البدع والخرافات وصفت الفطر من ذلك الشوب سهل تلقين العقيدة الصحيحة وتلقتها النفوس بالقبول))[1].

و تتجلى واقعية منهجه في الإصلاح العقدي في البرنامج الذي وضعه مع الجمعية الذي يبتدأ ببيان الأسباب التي أدت بالناس إلى الإعراض عن الكتاب والسنة وابعدتهم عن هدايتهمان ثم ببيان ما يلزم سلوكه لإرجاعهم إلى تلك الهداية... كما وضعت الجمعية خريطة للقطر الجزائر تبين مناطق العمل وكيفية السلوك الإصلاحي في كل منطقة.[2]

## 1- التربية وسيلة الإصلاح العقدي

لهذا جعل التربية أصل التغيير وأساس الإصلاح، انطلاقا من مفهوم الآية الكريمة: " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم"(الرعد/11)، حيث أدرك علماء جمعية العلماء المسلمين أن تغيير الاوضاع –وهو غاية العمل الاصلاحي – لا يتحقق قطعا إلا إذا حدث التغيير في البنية الذاتية للمجتمع الجزائري ؛ بأن يعمل كل فرد جزائري_ رجل كان أو إمرأة_ على تغيير ما بنفسه أولا بالتخلص من مجموع القيم السلبية: من تواكل، استسلام، ضعف الهمة،ضعف الإرادة، جهل.. حينذاك يُصبح مؤهلا للتخلص من ربقة الاستعمار ،ويحقق فاعليته في التاريخ، ولهذا اتخذت

1 – أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،،بيروت: دار الغرب الإسلامي، ج1، ط1، 1997م،ص 86

2 – نفس المرجع ص 86

الاصلاحية الآية شعارا لها[1]، "وتبنتها أساسا لكل تفكير حتى أُشرب الشعب في قلبه نزعة التغيير فأصبحت أحاديثه تتخذ منها شرعة ومنهاجا ...."[2]

ولم يكن هذا المنهج في التغيير إلا نتاج تأمل عميق؛ سواء في أصول البنية الثقافية والمعرفية للمجتمع الجزائري أو لواقع الحال في تلك الظروف العصيبة من مرحلة الهوان التاريخي، حتى نجد الشيخ يقول مؤكدا على نقطة البداية :"من أراد أن يخدم هذه الأمة فليقرأها كما يقرأ الكتاب، وليدرسها كما يدرس الحقائق العلمية. فإذا استقام له ذلك، استقام له العمل وأمن الخطأ فيه، وضمن النجاح والتمام له. فإن تصدى لأي عمل يمس الأمة من غير درس لاتجاهها ولا معرفة بدرجة استعدادها كان حظه الفشل."[3]

وهذا التغيير لا يتأتى إلا بوسيلة التربية والتعليم؛ التربية بمعنى التوجيه السلوكي والخلقي بزرع القيم وغرس العادات الايجابية التي تدفع للحركة والنهوض وإتقان العمل، ومن ثم الجهاد ضد الاستعمار، وهو ما لا يتم إلا بإصلاح التعليم وفق منهج سديد للتوجيه والتثقيف على أساس فكر حي صحيح يستمد من مرجعية الشعب الحضارية لحمة بنائه،،،،وهو ما يقوم أولا على تنقيه الأذهان وتطهير العقول من رواسب الفكر الخرافي الذي كانت تنشره أوكار التخلف للطرقية البائدة بتشجيع فاعل لمراصد الاستعمار[4].

---

1 – بشير قلاتي: شروط النهضة عند الشيخ البشير الإبراهيمي، موقع الشهاب.

2 – مالك بن نبي، شروط النهضة،ترجمة عبد الصبور شاهين ،ط1 ،دمشق: دار الفكر،1986 ، ص25.

3 – محمد البشير الإبراهيمي، جريدة البصائر 2 – 1948.

4 – رجاء غارودي، نفسه، ص144، أنظر أيضا: مالك بن نبي، شروط النهضة، م،س،ص24، 25

وقد حلل وعلل رائد النهضة الشيخ عبد الحميد بن باديس– رحمه الله –(وهما يصدران من مشكاة واحدة) أساس التغيير بقوله:" لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤه، فإنما العلماء من الأمة بمثابة القلب ؛ إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله، وصلاح المسلمين إنما هو بفقههم الاسلام وعملهم به،وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم،فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل فكذلك المسلمون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم....ولن يصلح العلماء إلا إذا صلُح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته: لنفسه ولغيره؛ فإذا أردنا أن نُصلح العلماء فلنصلح التعليم، التعليم الذي يكون به المسلم عالما من علماء الاسلام يأخذ الناس عنه دينهم **ويقتدون به فيه**[1]"

فالقضية منطقية تماما ،وبذكر المعلم القدوة يربط المنهج التعليمي بالتربية والتوجيه السلوكي ،،،وليس مجرد تعليم كلمات وحروف وتلقين معارف مجردة.....بل جاء التأكيد من الشيخ البشير الإبراهيمي على أن: "**التربية قبل التعليم...**" ؛ لأنها الأساس الذي يُبنى عليه. ولا مستقبل لأمة تفصل بينهما أو تقدم العلم المجرد وتهتم بنشر المعارف الدقيقة وتُهمل بالمقابل التوجيه الخلقي وزرع القيم على أساس من مرجعية الأمة ودينها وثقافتها الأصيلة،،،،،وقد أجاد حافظ إبراهيم في قوله :

**إنما الأمم الأخلاق ما بقيت  فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا**

1 –ابن باديس، آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس، ج4:ط1، الجزائر: وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، 1406هـ/1985م،

وهذا ما أدركه الشيخ إدراكا تاما وجعله أساس النهضة، ففي خطاب له في اليوم الثاني للاجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين(مساء الثلاثاء 4ربيع الاول 1351هـ)[1] قالها صريحة فصيحة:

(( إن جمعيتكم هذه أُسست لغايتين شريفتين: هما إحياء مجد الدين الاسلامي وإحياء مجد اللغة العربية. فأما إحياء مجد الدين الاسلامي، فبإقامته كما أمر الله أن يُقام، بتصحيح أركانه الأربعة: العقيدة والعبادة والمعاملة والخلق،،فكلكم يعلم أن هذه الأركان قد أصبحت مختلة، وأن اختلالها أوقعنا فيما ترون من مصائب وبلايا وآفات ....واختلت الاخلاق وفي اختلالها البلاء المبين ؛ إن الأخلاق في دينكم هي شُعب الايمان، فلا يختل خلق إلا وتضيع من الايمان شُعبة، وقد أجمع حكماء الامم على هذه الحقيقة التي قررها الاسلام بدلائله وأصوله: وهي أن الأمم لا تقوم ولا تحفظ وجودها إلا برسوخ الأخلاق الفاضلة في نفوس أفرادها.

ولهذا نرى الإسلام يأخذ في شروطه على أبنائه أن يتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر، ويُبديء في هذا المعنى ويُعيد ،ويضرب الآمثال ويبين الآثار، ويلفت النفوس إلى الإعتبار بمن مضوا وإلى سنن الله الخالية فيهم..[2])).

**2 –حماية الإسلام من المتأكلين باسمه:**

وكان من حرص الشيخ على حماية الإسلام من الدجالين، يصب جام غضبه على أولئك الذين يلبسون لبوس العلماء، ثم هم يعملون لخدمة الاستعمار تحت عنوان الوظائف الدينية: كالإمامة والخطابة والتدريس والفتوى، وهذه هي الكارثة: أن

1 – بشير قلاتي، المرجع السايق.

2 – آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1،ص 133..136.

يتحدث باسم الإسلام رؤوس جهال، يُسألون فيفتون بغير علم، فيَضلون ويُضلون أو أسوأ من ذلك: أن يفتوا بما يرضي سادة الاستعمار، وإن أسخط الواحد القهار، وإنما ينتصر الإسلام بالعلماء لا بالعملاء، وبالدعاة لا بالأدعياء.

يقول الشيخ (( إن المسجد لا يؤدي وظيفته، ولا يكون مدرسة للقرآن، إلا إذا شاده أهل القرآن، وعمروه على مناهج القرآن، وذادوا عنه كل عادية. وما جعل القرآن المساجد لله، إلا لتكون منبعاً لهدايته، وما وصف الذين يعمرون مساجد الله بأنهم لا يخشون إلا الله[4]، إلا ليقيم الحجة على ضعفاء الإيمان ويعزلهم عن هذه المرتبة.

وصدق الله وصدق رسوله عليه الصلاة والسلام الذي وصف القرآن بأنه (لا تنقضي عجائبه)! فوالله لكأن هذه الجملة "لَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ" من هذه الآية بهذا الأسلوب المقيد للحصر بأبلغ صورة نزلت اليوم، وهّاجة بأنوار الرسالة، مطولة بأنداء الوحي، لتكون حجتنا القاطعة على هذا النمط من عمار المساجد الذين يخشون المخلوق ولا يخشون الله[1])).

لقد وقفت جمعية العلماء لتذود عن الإسلام في شتى الميادين، كما يذود الأسد عن عرينه، وكما يدافع الحر عن عرضه، وكما يدافع الوالد عن ولده وفلذة كبده[2].

دافعت عنه في ثلاث ميادين في وقت واحد:

أ- في الميدان الخارجي بما ردت به من شبه الطاعنين، وكفكفت من غلواء المبشرين، وبما أقامت من حصون في وجوه الملحدين.

---

1 - من مقالة نشرت في البصائر العدد 153 سنة 1921م تحت عنوان: كلمتنا عن الأئمة.

2 - القرضاوي: مقومات الفكر الإصلاحي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مقع اسلام انلاين.

ب- وفي الميدان الخاص بالحكومة الجزائرية، وخصوصاً في قضية (فصل الدين عن الحكومة) التي تناولها الشيخ في مقالات عدة تحمل النور والنار، تناولتها بالشرح والتحليل، وبالبيان والتذليل، ولم يهن لها عزيمة، ولا خارت لها في المطالبة قوة، لم يخدعها وعد ولا ردها وعيد.

ج- وفي الميدان الداخلي: بينها وبين قومها وأبناء ملتها، حتى تعلم الجاهل، واهتدى الضال، وفاء إلى الرشد الغوي.

## 3- -الأثر السلبي للمدارس الكلامية وتخلف دراسة علم التوحيد:

### 1- مقارنة بين المدارس الكلامية والصوفية

أما المذاهب الكلامية بعد انحرافها واخطلاطها بالفلسفة في عصور الإنحطاط، فلم يكن أثرها بالقليل في تفرق المسلمين وتمزق شملهم. ولكنها لما كان موضوعها البحث في وجود الله وإثبات صفاته، وما يجب له من كمال، وما يستحيل عليه من نقص، كل ذلك من طريق العقل —كانت دائرتها محدودة، وكان التعمق فيها من شأن الخواص. وقعد بالعامة عن الدخول في معتركها إحساسها بالتقصير في أدواته، من جدل وعقليات يحتاج إليها في مقامات المناظرة والحجاج. فليس علم الكلام كعلم التصوف: مطية ذلولاً يندفع لركوبها العاجز والحازم. فالتصوف شيء غامض يسعى إليه بوسائل غامضة. ويسهل على كل واحد ادعاؤه والتلبيس به. فإن خاف مدعيه الفضيحة لم يعدم سلاحاً من الجمجمة والرمز وتسمية الأشياء بغير أسمائها. ثم الفزع إلى لزوم السمت، والتذرع بالصمت، والأعراض عن الخلق، والانقطاع والهروب منهم، ما دام هذا كله معدوداً في التصوف، وداخلاً في حدوده. ولا كذلك علم الكلام الذي يفتقر إلى عقل نير وقريحة وقادة وذكاء نافذ ويحتاج

منتحله إلى براعة ولسن ومران على المنطق ومقدامته ونتائجه وأقيسته وأشكاله. ولم كل هذا العدد ؟ كل هذه العدد للمناظرات وما تستلزمه من إيراد ودفع وافحام وإلزام. وأين العامة من هذا كله ؟ لذلك لم يكن لها من حظ في هذا العلم إلا معرفة أسماء بعض الفرق والانتصار لها انتصاراً تقليدياً ولذلك كانت آثار التفريق الناشئة عن هذه المذاهب الكلامية قاصرة على طبقات مخصوصة ولم تتغلغل في العامة كما تغلغلت آثار التصوف.

وقد انقرضت تلك الفرق، وانقرض بانقراضها سبب جوهري من أسباب التفرق، بل مات بموتها شاغل طالما شغل طائفة من خيرة علماء المسلمين ببعضهم، وجعل بأسهم بينهم شديداً، وألهاهم بما يضر عما ينفع.

تلاشت تلك الفرق ولم تبق إلا أخبار معاركها الجدلية في كتب التاريخ، وإلا آراؤها المدونة في كتبها فتنة للضعفاء، وتبصرة للحصفاء. ولم يبق من تلك الأسماء التي كونت قاموساً في الأنساب إلا اسمان يدوران في أفواه العامة وأشباه العامة، ويستعملونها في أغراض عامية، وهما (أهل السنة والمعتزلة[1]).

**2- تخلف دراسة علم التوحيد:**

ومن المحزن أن دراسة علم التوحيد حتى في كلياتنا (الراقية) -كالأزهر والزيتونة- لا تزال جارية على تلك الطرائق، وفي تلك الكتب. ولا تزال تقرر فيها تلك الآراء، ولا تزال تذكر فيها أسماء تلك الفرق التي لم يبق لها وجود.. يستعرض سيدنا المدرس تلك الآراء، ثم يدحضها، ويقيمها ثم ينقضها. وتقطع أوقات الطلبة المساكين في ذلك. ويا ضيعة الأعمار.

1 - انظر :آثار البشر الإبراهيمي، ج 1/97-96

أما الشبهات التي يوردها كل يوم ملاحدة العصر ومبشرو المسيحية على الإسلام، ويفتنون بها العلماء فضلاً عن العوام، فإن كلياتنا (العلمية الدينية) ومدرسيها لا يعيرونها أدنى اهتمام، ولا يعمرون بها وقت الطلبة. فيا للفضيحة.

وأما المذاهب الصوفية فهي أبعد أثراً في تشويه حقائق الدين وأشد منافاة لروحه، وأقوى تأثيراً في تفريق كلمة المسلمين؛ لأنها ترجع في أصلها إلى نزعة غامضة مبهمة تسترت في أول أمرها بالانقطاع للعبادة، والتجرد من الأسباب، والعزوف عن اللذات الجسدية، والتظاهر بالخصوصية، وكانت تأخذ منتحليها بشيء من مظاهر المسيحية، وهو التسليم المطلق، وشيء من مظاهر البرهمية، وهو تعذيب الجسد وإرهاقه، توصلاً إلى كمال الروح، زعموا ! وأين هذا كله من روح الإسلام وهدي الإسلام ؟ ولم يتبين الناس خيرها من شرها لما كان يسودها من التكتم والاحتراس حتى جرت على ألسنة بعض منتحليها كلمات كانت ترجمة لبعض ما تحمل من أوزار. فراب أئمة الدين أمرها. وانفتحت أعين حراس الشريعة، فوقفوا لها بالمرصاد، فلاذ منتحلوها بفروق مبتدعة يريدون أن يثبتوا بها خصوصيتهم كالظاهر والباطن، والحقيقة والشريعة، إلى ألفاظ أخرى من هذا لا تخرج في فحواها عن جعل الدين الواحد دينين.

وما كاد السيف الذي سلّ على الحلاج وصرعى مخرقته يغمد، ويوقن القوم أنهم أصبحوا بمنجاة من فتكاته حتى أجمعوا أمرهم وأبدوا للناس بعض مكنونات أسرارهم ملفوفة في أغشية جميلة من الألفاظ، ومحفوفة بظواهر مقبولة من الأعمال. وحاولوا أن يصلوا نحلتهم تلك بعجرها وبجرها بصاحب الشريعة أو بأحد أصحابه فلم يفلحوا وافتضحت حيلتهم وانقطع الحبل من أيديهم فرجعوا إلى ادعاء الكشف وخرق

الحجب والاطلاع على ما وراء الحس إلى آخر تلك (القائمة) التي لا زلت تسمعها حتى من أفواه العامة، وتجدها في معتقداتهم[1].

و هذه دعوة منه إلى تجاوز بعض مناهج المتكلمين وخلافاتهم التي تجاوزها العصر لخصوصية بيئتها التي نشأت فيها، دعوة لتجديد المناهج الدراسية في الكليات الإسلامية وخاصة تدرس علم التوحيد، وهذا عين النظرة الواقعية عند الإبراهيمي.

## 4- الطرقية والإنحراف العقدي

### 1- التصوف بين السنة والبدعة

ترتبط مقاومة الصُّوفيَّة المبتدعة بإصلاح العقيدة ارتباطاً وثيقاً, لأن التصوف المنحرف اصبح علما على البدع ومن اقوى مظاهر الشرك في المجتمع الإسلامي، فبذلك تميز عن التصوف السني بما قام به العلماء المسلمون من محاربة للطرقية وتصحيح للتصوف، فقدموا النماذج البارزة عبر التاريخ الإسلامي للطريق الصحيح والمنهج القويم للتصوف بمحاربة البدع والإحتلال فكانوا رهبانا بالليل فرسانا بالنهار، امثال، ابن تيمية الشامي ومحمد بن السنوسي المجاهدي الحسني الإدريسي المغاربي والأمير عبد القادر الجزائري وحسن البنا المصري، ممثلين الطرق لقادرية والسنوسية والشاذلية في تطورها.

وهؤلاء هم الصوفية الذين خلصوا أنفسهم لله تعالى وفهموا دورهم في هذا الكون الذي يبذلون الروح في سبيل الله حين يدعو داعي الجهاد وتقتضيه حراسة الدعوة الإسلامية.

---

1 - انظر :آثار البشر الإبراهيمي، ج 1/97-99

وأثر الطرق الصوفية في نشر الإسلام في بقاع كثيرة في العالم الإسلامي حقيقة تاريخية لا يختلف فيها اثنان، إلا بعضها الذي انحرف وتخلف عن الركب لظروف عدة، حيث يرتبط انتشار الإسلام في إفريقيا السوداء جنوب الصحراء والهند بكثير من الطرق والزوايا وشيوخها بما يبذلون من جهاد في هذا الصدد، إذ لم ينتشر الإسلام في كثير من هذه المناطق بواسطة الحروب، ذلك لأن التوافق الاجتماعي بين الكافرين والمسلمين لا يتم إلا بواسطة أولئك الذين يعطون ولا يطلبون ويقرضون ولا يأملون في شيء[1].

كما لا ينكر أحد الدور الذي أدته الزوايا السنوسية في الجهاد والأعمال الحربية التي كان لها أثرها في تونس وليبيا والجزائر والزوايا القادرية والرحمانية وغيرها ودورها في مقاومة الاحتلال الغربي بالجزائر واحتضان ثورة التحرير[2].

فشيوخ التصوف الأوائل قيدوا علومهم وتربيتهم بالكتاب والسنة، أما المتأخرون فقد ضل كثير منهم، (فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ حماد والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين، فهم لا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت. وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم).3

---

1- عبد الرحمان بدوي: تاريخ التصوف، ص25 وانظر أحمد شلبي: موسوعة التلريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج6، ص209.

2- صالح نعمان: دور التصوف في ظهور حركات الإصلاح والتجديد في الإسلام، الملتقى الدولي حول التصوف، جامعة ادرار، نوفمبر 2008.

3- عبد الحليم أحمد بن تيمية: كتابه الفتاوى -علم السلوك- ج 10 ص 485 -516.

كما أن التصوف الإسلامي هو دعوة إلى التحرر من كل انواع الحرية بل هو عين الحرية فالإنسان من منظور صوفي إسلامي قادر على بلوغ قمة الحرية والتحرر التام حين يتخلص من ربقة كل أصناف الضغوط الاقتصادية والاجتماعية.

فالصوفي السني "عبد الكريم بن طلحة القشيري"[1] في مؤلفه "الرسالة" نقلا عن معلّمه الأكبر أبو علي الدقّاق يؤكّد: " أنّ الحرية تتحدّد في أن لا يكون العبد تحت رقّ المخلوقات، ولا يجري عليه سلطان المكونات، وعلامة صحته سقوط التمييز عن قلبه بين الأشياء، فتتساوى عنده أخطار الأعراض"[2].

وفي نفس المعنى روي عن الصحابي زيد بن حارثة رضي الله عنه أنه قال للرسول صلى الله عليه: "عزفت نفسي عن الدنيا، فاستوى عندي حجرها وذهبها".

ولن يتحقق هذا المقام إلا بكمال العبودية، فإذا صدق العبد لله تعالى عبوديته خلصت من رقّ الأغيار حريته. وهو ما أوضحه الصوفي "بشر الحافي" بقوله: "من أراد أن يذوق طعم الحرية ويستريح من العبودية فليطهّر السريرة بينه وبين الله تعالى".

وقد أوضح الإمام القشيري مراتب العبادة الكاملة التي تحقّق الحرية الحق والأشمل والأوسع، فانطلق من قوله تعالى: "واعبد ربك حتى يأتيك اليقين"[3] ومستندا إلى تأويل شيخه أبا علي الدقّاق في تفسير معنى " العبادة " ودرجات مقاماتها عند

1- الرسالة القشيرية، شرح وتقديم: نواف الجراح، دار صادر، بيروت، ط 1، 2001، ص. 140

2- المرجع نفسه.

3 -سورة الحجر / الآية: 99

المتصوّفة، راسما بذلك سلّما في جغرافية الوصل والوصال بين العبد وربه ليبلغ بالتدرج الروحي حقّ اليقين[1].

هذه الحقيقة هي التي جعلت أولئك العلماء المتصوفة مصلحين لواقعهم المنحرف مجاهدين لأعداء التوحيد مقاومين للبدع والدعوات الهدامة.

لهذا جعل الأستاذ الشيخ البشير الإبراهيمي محاربة الطرقية من أولويات دعوته الإصلاحية التي قامت على اصلاح العقيدة الإسلامية بمحاربة الشرك ومظاهره.

**2- نظرته الواقعية للتصوف والطرقية في الجزائر:**

فقدَ كشفَ الإبراهيميُّ رحمه اللَّه عن مخازي هؤلاء الطرقية المتاجرون باسم الدِّين، اعوان الإحتلال الفرنسي الصليبي وحاربهم بشدَّة, وتصدى لهم في كل حين ومكان.

يقول مبيّنا أولوية محاربة الإنحراف العقدي عن طريق مقاومة الطرقية وضلالاتهم: (( وكنت على أثر رجوعي واجتماعي بهذا الأخ نتداول الرأي في هذا الموضوع، ونضع مناهجه، ونخطط خططه، ومعنا بعض الإخوان، فأجمعنا في معرض الرأي الفاصل على أننا أمام استعمارين يلتقيان عند غاية.

أحدهما: استعمار روحاني داخلي:

يقوم به جماعة من إخواننا الذين يُصلّون لقبلتنا باسم الدين، وغايتهم استغلال الأمة، ووسيلتهم صدّ الأمة عن العلم، حتى يستمر لهم استغلالها، وهؤلاء مشايخ الطرق الصوفية التي شوهت محاسن الإسلام.

---

1- انظر علي الصولي: مقام الحرية في التصوّف الإسلامي، الملتقى الدولي "حرية الإعتقاد في الإسلام والأديان والمواثيق والقوانين الدولية"، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة،ماي2008.

والثاني: استعمار مادي:

تقوم به حكومة الجزائر باسم فرنسا، وغايته استغلال الأمة، ووسيلته سد أبواب العلم في وجه الأمة حتى يتم لها استغلالها، والاستعماران يتقارضان التأييد، ويتبادلان المعونة، كل ذلك على حساب الأمة الجزائرية المسكينة، أولئك يضلّونها، وهؤلاء يذلّونها، وجميعهم يستغلّونها!!

كنا نتفق على هذا، ولكننا نحمل الرأي في أي الاستعماريين، يجب أن نبدأ بالهجوم عليه، ولم يكن من الصعب علينا الاتفاق على الهدف الأول للهجوم، فاتفقنا على أن نبدأ بالهجوم على الاستعمار الأول وهو الطرق الصوفية، لأنها هي مطايا الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا ووسطها وغربها، ولولاها لم يتم له تمام.))

و يبين الشيخ ما آل إليه مذهب الصوفية من انحراف واسباب ذلك مبررا موقفه من المنحرفين منهم وهم الطرقية، ((فالمذاهب الصوفية أبعد أثراً في تشويه حقائق الدين وأشد منافاة لروحه، وأقوى تأثيراً في تفريق كلمة المسلمين؛ لأنها ترجع في أصلها إلى نزعة غامضة مبهمة تسترت في أول أمرها بالانقطاع للعبادة، والتجرد من الأسباب، والعزوف عن اللذات الجسدية، والتظاهر بالخصوصية، وكانت تأخذ منتحليها بشيء من مظاهر المسيحية، وهو التسليم المطلق، وشيء من مظاهر البرهمية، وهو تعذيب الجسد وإرهاقه، توصلاً إلى كمال الروح، زعموا ! وأين هذا كله من روح الإسلام وهدي الإسلام ؟ ولم يتبين الناس خيرها من شرها لما كان يسودها من التكتم والاحتراس حتى جرت على ألسنة بعض منتحليها كلمات كانت ترجمة لبعض ما تحمل من أوزار. فراب أئمة الدين أمرها. وانفتحت أعين حراس الشريعة، فوقفوا لها بالمرصاد، فلاذ منتحلوها بفروق مبتدعة يريدون أن يثبتوا بها خصوصيتهم

كالظاهر والباطن، والحقيقة والشريعة، إلى ألفاظ أخرى من هذا لا تخرج في فحواها عن جعل الدين الواحد دينين.

وما كاد السيف الذي سلّ على الحلاج وصرعى مخرقته يغمد، ويوقن القوم أنهم أصبحوا بمنجاة من فتكاته حتى أجمعوا أمرهم وأبدوا للناس بعض مكنونات أسرارهم ملفوفة في أغشية جميلة من الألفاظ، ومحفوفة بظواهر مقبولة من الأعمال. وحاولوا أن يصلوا نحلتهم تلك بعجرها وبجرها بصاحب الشريعة أو بأحد أصحابه فلم يفلحوا وافتضحت حيلتهم وانقطع الحبل من أيديهم فرجعوا إلى ادعاء الكشف وخرق الحجب والاطلاع على ما وراء الحس إلى آخر تلك (القائمة) التي لا زلت تسمعها حتى من أفواه العامة، وتجدها في معتقداتهم[1])).

**تاريخ التصوف وانحرافه**

والعرض التاريخي للتصوف وتاريخه يبني عليه الإبراهيمي اسباب موقفه وموقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الطرقية في الجزائر أيام الإحتلال الفرنسي تأييدها له على حساب الأمة والدين فيقول: ((والصوفية أو الطُّرُقية كما نسميها نحن في مواقفنا معها، هي نزعة مستحدثة في الإسلام، لا تخلو من بذور فارسية قديمة، بما أنّ نشأة هذه النزعة كانت ببغداد في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، واصطباغ بغداد بالألوان الفارسية في الدين والدنيا معروف، وتدسس بعض المتنطعين من الفرس إلى مكامن العقائد الإسلامية لإفسادها، لا يقل عن تدسس بعضهم إلى مجامع السياسة، وبعضهم إلى فضائل المجتمع وآدابها لإفسادها، ومبنى هذه النحلة في ظاهر أمرها التبتل والانقطاع للعبادات التي جاء بها الإسلام، ومجاهدة النفس من طريق

1- انظر :آثار البشر الإبراهيمي .(1/97-99) ،

الرياضة بفطمها عن الشهوات، حتى تصفو الروح وتَشِف وتَرِق، وتتأهل لمشارفة الملأ الأعلى، وتكون بمقربة من أفق النبوة، وتتذوق لذة العبادة الروحية، وقد افترق النازعون إلى هذه النزعة من أول خطوة فرقا.وذهبوا فيها مذاهب، من القصد الذي يمثله أبو القاسم الجنيد، إلى الغلو الذي يمثله أبو منصور الحلاج، إلى ما بين هذين الطرفين.

وكانت لأئمة السنة وحماتها، الواقفين عند حدودها ومقاصدها ومأثوراتها: مواقف مع الحاملين لهذه النزعة، وموازين يزنون بها أعمالهم وآراءهم، وما يبدر على ألسنتهم من القول فيها، ولسان هذه الموازين هو صريح الكتاب وصحيح السنة، وكانت في أول ظهورها بسيطة تنحصر في الخلْوة للعبادة، أو الجلوس لإرشاد وتربية من يشهد مجالسهم، ثم استفحل أمرها فاستحالت علما مستقلا، يشكل معجما كاملا للاصطلاحات، ودونت فيها الدواوين التي تحلل وتشرح، وتصف الألوان الباطنية للنفس، وتبين الطريق الموصل إلى الله، والوسيلة المؤدية للسعادة، وكيفية الخلاص من مضايق هذا الطريق وأوعاره، ثم انتقلت في القرون الوسطى من تلك الأعمال التي تستر أصحابها، إلى الأقوال التي تفضحهم، فخاضوا في شرح مغيبات، وأفاضوا في جدال مكشوف بينهم وبين خصومهم، وكانوا سببا من الأسباب الأصيلة في شق الأمة شقين: أنصار، ومنكرين، وضاعت في هذا الضجيج ثمرة هذه النحلة، وهي رياضة النفس اللجوج على العبادة، وقمع نزواتها البدنية، وأصبحت هذه النحلة أقوالا تدافع، يقولها من لا يفقه لها معنى، فضلا عن أن تصطبغ بها نفسه. والحق في هذه النزعة أنها صبغة روحية مرجوحة في ميزان الشرع وأحكامه، وإنما يقبل منها ما يساير المأثور، ولا يجافي المعروف من هدي محمد وأصحابه، فإن الدين قد تكامل

بختام الوحي، والزيادة فيه بعد ذلك كالنقص منه، كلاهما منكر، وكلاهما مرفوض، وما لم يكن يومئذ دينا فليس بدين بعد ذلك.

ولكن تلك النزعة التي عفا رَسْمُها، بقي اسمها، ولم يبق بقاء تاريخيا للعظة والاعتبار، وإنما بقي فتنة بين المسلمين، وميدانا لعلمائهم يتراشقون فيه ويتنازعون، ولعامتهم يلهون فيه ويلعبون، ويضلون بسببه عن حقائق دينهم ودنياهم.

وانتهى بها الأمر في القرون الأخيرة إلى نسبة مجردة من جميع المعاني، ينتسب إليها– تقحما– كل من هبّ ودب، لا يطلبها من طريق علم ولا تربية، ولكن من طريق الشعوذة والحيلة، ثم تدلت دركة أخرى، فأصبحت وسيلة معاش! ومصيدة لابتزاز أموال العامة، وانتهاكا لأعراضهم.. وهناك التقت مع الاستعمار في طريق واحد، فتعارفا وتعاهدا على الولاء.

ابحثوا في تاريخ الاستعمار العام، واستقصوا أنواع الأسلحة التي فتك بها في الشعوب، تجدوا فتكها في الاستعمال هذا النوع الذي يسمى (الطرق الصوفية)، وإذا خفي هذا في الشرق، أو لم تظهر آثاره جليّة في الاستعمار الإنجليزي، فإن الاستعمار الفرنسي مارست قواعده في الجزائر، وفي شمال أفريقيا على العموم، وفي أفريقيا الغربية وفي أفريقيا الوسطى، إلا على الطرق الصوفية وبواسطتها!

ولقد قال قائد عسكري فرنسي معروف، كلمة أحاطت بالمعنى من جميع أطرافه قال: (إن كسب شيخ طريقة صوفية أنفع لنا من تجهيز جيش كامل، وقد يكونون ملايين، ولو اعتمدنا في إخضاعهم على الأموال والجيوش لما أفادتنا ما تفيده تلك الكلمة الواحدة من الشيخ، على أن الخضوع لقوتنا لا تؤمن عواقبه لأنه ليس من القلب. أما كلمة الشيخ فإنها تجلب لنا القلوب والأبدان والأموال أيضا).

هذا معنى كلمة القائد الفرنسي وشرحها، ولعمري إنها لكلمة تكشف الغطاء عن حقيقة ما زال كثير من إخواننا الشرقيين منها في شك مريب، وهم لا يدرون أن أول من خرج عن جماعة الأمير عبد القادر الجزائري في أيام جهاده شيخ طريقة معروفة، وأن من أكبر أسباب هزيمته استعانة فرنسا عليه بمشايخ الطرق الصوفية، وإعلان كثير من أتباعهم الخضوع لفرنسا، فهل نحتاج بعد هذا إلى دليل؟ وأن تاريخ تلك الوقائع لم يزل مداده طريّا، وما زال الاستعمار بالجزائر يُسمي هؤلاء المشايخ (أحباب فرنسا)[1].

فالإحتلال وظف الطرقية لصالحه لما اتصفت وتحلت به من الشرك والشعوذة واعمال التضليل والتنويم للشعب الجزائري.

### 3- مخاطر الطرقية وبدعهم

وكما اسلفت فقد كشف الشيخ الإبراهيمي خيانات الطرقيّة ومخازيهم وبدعهم، وتكريسهم التخاذل والإستسلام للإحتلال الفرنسي مخدرين الناس بعقيدة الجبر في القضاء والقدر، وعدهم داءً عُضالاً يجب التَّخلُّصُ منه، لِتُحَرّر عقيدة المسلم من التَّشويش، وتطلق لعقله العنان في التَّشبُّع وفهم الشريعة، فتراه يصرِّح بقوله:

إننا علمنا حقَّ العلم بعد التَّروِّي والتَّثبُّت ودراسة أحوال الأُمَّة ومناشئ أمراضها أنَّ هذه الطُّرق المبتدعة في الإسلام هي سببُ تفرُّق المسلمين، ونعلم أنَّنا حين نقاومها نقاوم كلَّ شر ،إنَّ هذه الطُّرق لم تسلم منها بقعة من بقاع الإسلام، وإنَّها

---

1أ- نظر :آثار البشير الإبراهيمي جـ 4صـ344 – 342، وهو جزء من مجموعة محاضرات ألقاها الشيخ البشير في معهد الدراسات العربية العليا في القاهرة في أوائل الخمسينات من القرن العشرين تحت عنوان :الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

تختلف في التَّعاليم والرُّسوم الظاهر كثيراً، ولا تختلف في الآثار النَّفسيَّة إلاّ قليلاً، وتجتمعُ كلها في نقطة واحدة وهي التَّحذير والإلهاء عن الدِّين والدُّنيا"

ويتابعُ شارحاً مخاطرَ الطرقيَّة وبدعها، حيث تعلَّقَ كثيرٌ من المسلمين بطقوس طريقتهم، وبطروحات مشايخهم، ولم يعودوا على اتِّصال مباشر مع الكتاب وصحيح السُّنَّة، بل أصبحت هذه الطُّرقُ حاجزاً بينهم وبين مصادر الشريعة، وكأنَّها دين جديد، لقد أصبحت بعض الطُّرق –كما يرى الإبراهيمي– في بلاد العرب والمسلمين، وفي الجزائر بخاصَّة، إضافة جديدة إلى محاولات الدَّس التي قام بها أعداء كثيرون للإسلام، إن كان بنحل الأحاديث، أو بالتَّأويلات المزَّورة للحقيقة، أو ما شاع عند العديد من الحركات الباطنيَّة، ولكن يعود ليؤكِّد أن هذا كان خطره أقل بكثير من خطر هذه الطَّريقة،[1] فيقول: "أما والله ما بلغَ الوضَّاعون للحديث، ولا بلغت الجمعيَّات السريَّة والعلنيَّة الكائدة للإسلام من هذا الدِّين عشر معشار ما بلغتهُ من هذه الطُّرق المشؤومة ... إنَّ هذه الهوَّة العميقة التي أصبحت حاجزة بين الأمَّة وقرآنها هي من صنع أيدي الطرقيِّين".

ويقول مقرِّعاً الطَّرقيَّة وفَهْمَهم الخاطئ للإسلام:

.."فكل راقصٍ صوفي، وكل ضاربٍ بالطَّبل صوفي، وكل عابثٍ بأحكام الله صوفي، وكل ماجنٍ خليعٍ صوفي، وكل مسلوب العَقل صوفي، وكل آكل للدُّنيا بالدين صوفي، وكل ملحدٍ بآيات الله صوفي، وهَلُّم سحباً، أَفيَجْمُلُ بجنودِ الإصلاح أن يَدَعُوا هذه القلعة تحمي الضَّلال وتُؤْويه، أم يجب عليهم أن يحملوا عليها حملةً صادقَةً شعارهم :

1– انظر مقالة الشيخ مشهور حسن آل سلمان: "الشيخ محمَّد البشير الإبراهيمي"، مجلة الأصالة العدد (1).

)لا صوفيَّة في الإسلام (حتى يدكُّوها دكَّاً، وينسفوها نسفاً، ويذروها خاويةً على عروشها".

أما علاقتهم بالإستدمار فقال عنهم، (("في أيَّام الحملة الكبرى على الحكومة الفرنسيَّة ظهرَ هؤلاء بمظهر مناقض للدِّين، فكشفوا السِّترَ عن حقيقتهم المستوردة، ووقفوا في صفِّ الحكومة مؤيِّدين لها، خاذلين لدينهم وللمدافعين عن حريَّته مطالبين بتأييد استعباده، عاملين بكُلّ جهدهم على بقائه بيد حكومة مستحيِّة تخرِّبه بأيديهم، وتشوِّه حقائقه بألسنتهم، وتلوِّثُ محاربيه ومنابره بضلالتهم)).

ويقول : "وقد أخَذوا في الزَّمن الأخير ببعض مظاهر العصر، وتسلَّموا بعضَ أسلحتهم بإملاء من الحكومة للدِّفاع عن الباطل، فكوَّنوا جمعيَّة، وأنشأوا مجلَّة، وجهَّزوا كتيبة من الكُتَّاب يقودها أعمى –ليشترك عاقلهم وسفيههم في هذه المخزيَات، وبحكم العموميَّة في الجمعيَّة، والاشتراك في المجلة ،ولو في دائرته الضيِّقَة ومن أهله وجيرانه ... دافعناهم –عندما ظهروا بذلك المظهر– بالحق فركبوا رؤوسهم، فتسامحنا قليلاً إبقاءً على حرمة (المحراب) و(المنبر) التي انتهكوها، فشدَّدوا إبقاءً على حرمة (الخبزة) !! فكشفنا عن بعض الحقائق المستوردة فلجُّوا وخاضوا، وثاروا وخاروا، فلمَّا عَتَوْا من أمر ربِّهم رميناهم بالآبدَة ... وهي أنَّ الصَّلاة خلفهم باطلة، لأنَّ إمامتهم باطلة ... لأنَّهم جواسيس!! "

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: ولي ملاحظتان على حملة العلامة الإبراهيمي على الطرق الصوفية ومشايخها:

الأولى: أنه لم يستحسن أحدا، على نحو ما قال تعالى: "إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ" [ص 24].

الثانية: أن الشيخ الإبراهيمي كان شديد الوطأة، حار الهجوم، حديد اللسان، على التصوف والصوفية.

ولعل الحرب التي كانت دائرة بين الطرفين، هي التي زادت النار اشتعالا، وأن الاستعمار كان يؤيد أصحاب الطرق ويستعين بهم، وأن المتصوفة كانوا يتطرفون في محاربة دعاة الإصلاح والتجديد، حتى حكى الإبراهيمي أنه سمع أحد الصوفية الكبار يقول عن العلامة رشيد رضا: إنه أضر على الإسلام من ألف كافر.

وقد علق الدكتور القرضاوي على حملة العلامة الإبراهيمي على الطرق الصوفية ومشايخها قائلا: ولي ملاحظتان على حملة العلامة الإبراهيمي على الطرق الصوفية ومشايخها:

الأولى: أنه لم يستحسن أحدا، على نحو ما قال تعالى: "إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ" [ص 24].

الثانية: أن الشيخ الإبراهيمي كان شديد الوطأة، حار الهجوم، حديد اللسان، على التصوف والصوفية.

ولعل الحرب التي كانت دائرة بين الطرفين، هي التي زادت النار اشتعالا، وأن الاستعمار كان يؤيد أصحاب الطرق ويستعين بهم، وأن المتصوفة كانوا يتطرفون في محاربة دعاة الإصلاح والتجديد، حتى حكى الإبراهيمي أنه سمع أحد الصوفية الكبار يقول عن العلامة رشيد رضا: إنه أضر على الإسلام من ألف كافر. [1]

لكننا نرى أن الدكتور القراضاوي كان صادقا ومصيبا في ملاحضته الثانية ولكن ملاحضته الأولى كانت حكما عاما تنقصه الدقة إذ نجد الأستاذ الإبراهيمي

1- يوسف القرضاوي: مقومات الفكر الإصلاحي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي،

كـان منصـفا في موقفـه مـن الصـوفية حيـث أشـاد بالمعتـدلين الموحـدين لله الموحـدين للصفوف الجامعين لشمل الشعب والمجاهدين منهم الذين قاوموا الإحتلال، يميز بين المتصوفة الوطنيين وغيرهم، بين التصوف السني والبدعي المنحرف.

فـالأمير عبـد القـادر الجزائـر مؤسـس الدولـة الجزائريـة الحديثـة والمجاهـد للعـدو الفرنسي وللبدعة، كان شيخ الطريقة الصوفية القادرية. ورغم ذلك حارب الطرقية الخونة للأمة والبائعين لذممهم ودينهم، إذ يقول الإبراهيمي في ذلك : (( أن أول من خرج عن جماعة الأمير عبد القادر الجزائري في أيام جهاده شيخ طريقة معروفة، وأن من أكبر أسباب هزيمته استعانة فرنسا عليه بمشايخ الطرق الصوفية، وإعلان كثير من أتباعهم الخضوع لفرنسا، فهل نحتاج بعد هذا إلى دليل؟ وأن تاريخ تلك الوقائع لم يزل مداده طريّا، وما زال الاستعمار بالجزائر يُسمي هؤلاء المشايخ (أحباب فرنسا).[1]

ومنهجه هذا المتسم بالعدل والإنصاف والحزم والعزيمة القائم على التصور الإسلامي الصحيح المستمد من القرآن وهدي الرسول، هو الذي جعله يجفف منابع الدعوات الهدامة ويستبدل التوحيد بدل الشرك في المجتمع بعون الله تعالى ثم اخوانه في الجمعية وينجح في دعوته الإصلاحية.

وهو ما بشر به اخوانه في وقفة مراجعة وتأمل يقول فيها: ((وإني أتعجل لكم البشرى بأن أحفاد أولئك المشايخ – إلا ما قل – أصبحوا من أكبر الناقمين على الاستعمار، بل أصبح بعضهم من الغلاة في الوطنية، ومن الصفوف الأولى من أنصار

1- نظر :آثار البشير الإبراهيمي جـ 4صـ344 – 342، وهو جزء من مجموعة محاضرات ألقاها الشيخ البشير في معهد الدراسات العربية العليا في القاهرة في أوائل الخمسينات من القرن العشرين تحت عنوان :الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

العلم والتعليم، والداعين إليهما، والعاملين على نشرهما بالجاه والمال، ولا تكاد توجد مدرسة من مدارس جمعية العلماء خالية من عدد من أولادهم، متعلمين أو معلمين، ومنهم كثير في الجامعات الإسلامية: القرويين والزيتونة والأزهر)).[1]

**الخاتمة:**

تلك هي واقعية الشيخ البشير الإبراهيمي في إصلاح الأمة التي قامت على اصلاح العقيدة تصورا وسلوكا، وهذا منهجه . رحمه الله . الذي وجسَّده في أقواله وأفعاله، وكتاباته الذي التزمه طيلة حياته المحتشدة بالأحداث الجسام، والتحوُّلات العظيمة، والجهاد لعودة المجتمع الجزائري إلى ينابيعه الأصيلة، واضطلاع المرأة الجزائرية بدورها في نهضة المجتمع المسلم .فكان فكره واقعيا منطلقا من واقع المجتمع الجزائري.

1- أنظر :آثار البشير الإبراهيمي جـ 4صـ344 – 342 مرجع سابق.